ويذمون أخرى وينسبهم الناس إلى الجنون فلا يؤخذونهم بما يقولون" وفي قيام النقد يبرز صوت الأحنف العكبري المكدي وهو شاعر استطاع أن يكتشف خلل عصره وسبب سوء حاله، وحال أقرانه من الأدباء المهمشين، فوجد علة ذلك في النهب والاستغلال والتمايز والتفاوت الطبقي والإجتماعي وفي ذلك يقول: (٢٢)

رأيْتُ في النَّومِ دُنيانا مزخرفةً
مثلَ العروسِ تراءتْ في المقاصيرِ
فقلْتُ: جودي. فقالتْ لي على عجلٍ
إذا تخلصتُ من أيدي الخنازيرِ

وفي إطار نقده السياسي يصوّر لنا بتورية ذكية شخصيات السلطة ورموزها في عصره ليدلّ على أن سوء الأمور نتيجة منطقية لتصرفات أولئك المغفلين الساذجين من الولاة والحكام فيقول:

قال: رؤيا المنام عندكَ حقٌ
قُلْتُ: هيهاتَ كلُّ ذاك بُخارُ
ليتَ يقظاتَهُمْ يَصحُّ لهُ الأمسرُ
فكيفَ المُغطُّ والنُّخارُ؟

هنالك جوانب أخرى من نقد الأخلاق، والعادات ومظاهر الرياء والتملّق لم تكن بعيدة عن إهتمامات أدب الهامشيين يمكن أن نصادف نماذج كثيرة تكشف عنها في بطون كتب التراث.

التمرد القاني:

ويبدو أن الجنون كما يرى فوكو ذو طبيعة كونية حين يرتبط بحدود الحرية التي تسمح بها ثقافة ما فالحرية " لها حدود سواء في مجال السياسة، والأخلاق، والدين، والجنس، والتعبير" (٢٤)

ويبدو أن لكل " عصر ولكل ثقافة قوانين قسرية" ومن يتمرد على سلطة هذه القوانين ويخترق حدودها يواجه غضب المجتمع ونقمته.

والقانون بحد ذاته لا يمكن أن يحقق مصلحة كل الفئات ولا أن يلبي رغبات الجميع، ومن هنا تبرز المفارقة بين التوافق والتضاد.

ولعلّ أكثر الأدباء الهامشيين كانوا يحسّون في أعماقهم نزوعاً إلى التمرد، والتمرد من سلطة المجتمع بأشكالها المختلفة وعندما لم يكن هذا الأمر ممكناً في الظروف المألوفة اتخذوا التحامق أو التجانن وسيلة للخلاص من سلطة المجتمع، والتمرد على نواظمه وقيمه وثقافته وتقاليده.

وهكذا عبّر أدب الهامشيين عن تمرد غير مباشر اتخذ شكل اختراق السائد والمألوف في السلوك الفردي، ذي الإتجاه الواضح في الفوضى والعدمية كأسلوب في تقويض أسس ما هو قائم في إطار الصراع غير المتكافئ بين الطرفين.

فقد كان أبو العبر على سبيل المثال يأتي بكل ما يصدم المجتمع فهو يصطاد عارياً وقد ربط في كل عضو من أعضاء جسده آلة من آلات الصيد (٢٥) دون أن يقيم وزناً لسلطة المجتمع ويصرّ على أن يأتي من الأقوال والتصرفات والحركات ما يناقض قيم مجتمعه وأعرافه بل نجده وفي كثير من المواقف يتمرد على طبيعة اللغة، ويهزأ من الشعر، ويقيم علاقات جديدة بين الألفاظ والتراكيب تشكل تمرداً سريالياً. يهشّم فيه اللغة، وعلاقات المعنى لو خاص بالجزافي، والعبث، واللامعقول.

إذ كان يعقد مجالسه في الأسواق والساحات العامة في هيئة غريبة يعتمد على رأسه خفّاً، وقد جعل سراويله قميصاً وقميصه سراويل(٢٦) ومن حوله جوقة تدقّ بالهواوين حتى إذا ما اجتمع الناس واشتد الصخب بدأ المشهد بطرح الأسئلة من الحاضرين فيرد عليهم أبو العبر بطريقة تثير الضحك دون أن يكون هنالك ترابط بين السؤال والجواب وقد وصف لنا ابن المعتز أحد مجالس أبي العبر وما كان يدور فيها قائلاً:" سأله أحدهم: يا أبا العبر لم صار دجلة أعرض من الفرات والقطن أبيض من الكمأة؟ فقال: لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار.

وقال آخر: لم صار العطار يبيع اللبد، وصاحب السقط يبيع اللبن؟ فقال: لأن المطر يجيء في الشتاء، والمنخل لا يقوم به الماء، وقال آخر: لم صار كلّ خصي أمرد، والماء في حزيران لا يبرد؟ فقال: لأن السفينة تجنح والحمار يرمح" (٢٧)

إن ولع أبي العبر بالمحال من الكلام يكشف عن نزعة واضحة في العبث أو النيل من مكانة اللغة والبلاغة في الإطار الرسمي الذي يجري على أساسه تقريب الشعراء إلى مجالس الخلفاء والأمراء، أمّا هو فقد اختلق نمطاً خاصاً به وجد له سوقاً رائجة في القاع الإجتماعي، ونال به إقبالاً واسعاً. وقد كشف عن سرّ طريقته في الكلام قائلاً:" كنت أبكر فأجلس على الجسر ومعي دواة ودرج فأكتب كل شيء أسمعه من كلام الذاهب والجائي والملاحين والمكارين حتى يملأ الدرج من الوجهين ثم أقطعه عرضاً. وألصقه مخالفاً فيجيء منه كلام...

ليس في الدنيا أحمق منه" (٢٨)

وربما يتضح لنا تمرده على الأدب الرسمي في قصائده التي يقيم فيها علاقات لغوية أو دلالات معنوية تتسم بالتفكك وعدم الترابط، وكأنه بذلك يثور على اللغة والمعنى والصور والألفاظ والقواعد في نزعة تحطيمية سريالية، ومن ذلك قوله:(٢٩)

أقرُّ الشعراءُ أني
ومرّوا في الخرمرمْ
فقطعتُ الرأسَ منهم
ثم جلد القدِ دَمْدَمْ
فعملنا منْه طبلاً
من طبولِ الجدِ دمدمْ
فضربنا به دمدمْ
ثم دمدمْ ثم دمدمْ
عجباً يا قومُ مني
كنْتُ معكمْ كالمُلَمْ

ولنتأمل هذا القول:(٣٠)

الموخُ يعشقُ وكَنّةُ الرمّانِ

والطيلسانُ قرابةُ الجُقْانِ

يا مَنْ رأى قلبي فعرقبَ أذنَهُ

فشممتُ منهُ حموضةَ الكتانِ

خلاص واسترخاء:

ويكشف أدب الفئات الهامشية عن إستحالة الخلاص الجماعي، ولهذا مثّل لنا هذا الأدب الدعوة إلى الخلاص الفردي وهذه سمة غالباً ما نجدها في مواقف الأفراد عندما تمرُّ المجتمعات في تحولات صعبة أو تواجه أخطاراً كبيرة. وفي ظل الأحباط أو اليأس، والعجز يعتقد الفرد أن الخلاص يكون حين يدير المرء ظهره للقيم الجماعية، ويبحث عن منفذ فردي.

وهذا ما نجده في أدب الحمقى والمتحامقين وهو ما يبرز في أصوات الشحاذين أوالمتسولين أوالمتطفلين الذين اكتشفوا أن المواجهة غير المتكافئة بين سلطة الثروة والفقر، وبين بطش الحكام وعجز العامة قد دفعت بهم إلى ضروب من أنماط السلوك والإنحرافات فارتضوا ذلك مادامت أسباب التغيير مستحيلة.

ولهذا نجد بين المتحامقين من يقول بالتحامق، ويدعو إليه كالقنوي إذ يقول: (٣١)

الرَوحُ والراحةُ في الحُمقِ

وفي زوالِ العقْلِ والخُرْقِ

فمَنْ أرادَ العيشَ في راحةٍ

فليلزمِ الجهلَ معَ الحُمْقِ

ويفهم من ذلك أن هذا المسلك التهميشي الذي تتخذه النخب المتنفذة تاريخياً يعبر عن سياسة مقصودة في محاصرة تيارات المعارضة أو شرائح الساخطين أو المتمردين إذ تدفع بهم إلى اليأس والإحباط والاستسلام في قبول ما هو مفروض عليهم.

ويسوق أكثر من أديب رأيه أو شهادته في التعبير عن هذه الحالة فقد كان صالح بن علي اليغييني يقول: "جددت فشقيت، ثم تحامقت، فأرحتُ، واسترحت" (٣٢)

وهكذا يصبح الإستسلام واقعاً يستحيل الخلاص منه إلا بالقبول به، فما جدوى العقل في زمن مجنون، وما نفع العلم في زمن جاهل، وباختصار إن المعقول وما يجب أن يكون هو الخاسر أو المغيب أمام قوة اللامعقول وما يجب ألا يكون، وهذه المحاكمة هي التي تجعل شاعراً متحامقاً يقول في دعوة تمثل العجز والتحول والإستسلام: (٣٣)

إذا كانَ الزمانُ زمانَ حُمْقٍ

فإنَّ العقلَ حِرْمانٌ وشومُ

فكُنْ حمقاً معَ الحمقى فإني

أرى الدنيا بدولتهم تدومُ

ويكاد خطاب تلك الشراعَ يتفق في هذا الجانب فأنت تجد لدى المتطفلين تأكيداً أن حياة التطفيل هي الخلاص من المعاناة وفيها راحة البال من عناء المتاعب وصعوبات الحياة وتقرأ ذلك في خطاب المتسولين فهذا أبو دلف الخزرجي يرى على لسان الشحاذين أن الكدية بطقوسها وأساليبها هي الباب إلى الخلاص، وفيها تتحقق حرية المكدي ويجد الراحة والنجاة وفي ذلك يقول: (٣٤)

فطُبنا نأخذُ الأرزا

تَ في العُسْرِ وفي اليُسْرِ

فما تنْفكُّ من صَعْبٍ

وما تفْترُ مِنْ مَتْرِ

فأحلى ما وجدنا العيشَ

بين الكَمْدِ والخَمْرِ

وفي ذلك نلمس إنحراف الفئات الهامشية وسقوط الكثير من أفرادها قديماً وحديثاً في حياة الجنس والمخدرات والإدمان للأسباب التي يمرون بها وسيأتون من تأثيراتها المختلفة.

عزلة وإغتراب

ولكن تلك الأصوات التي تجد في ذلك الإستسلام خلاصها كانت ومن جانب آخر تفصح عن المصير الذي دفعت إليه في سياق آلية التهميش، حيث تنتهي الحياة بأصحابها إلى تجرّع مرارة الإغتراب والحرمان والإنزواء في دهاليز الوحدة والعزلة وبذلك تتعمق مظاهر التأثير فيصبح الفرد غائباً مغيباً صامتاً لا شأن له في كل ما يجري من حوله وبذلك يفقد وجوده معناه، ويخسر إنسانيته إذ يصبح شيئاً منبوذاً لا يكترث به ولا يسأل عنه، وبذلك يغدو كائناً محبطاً عاجزاً عن الفعل أو المشاركة في تحمل المسؤولية هذا ما كان يشعر به الأحنف العكبري من إختناق وضياع واغتراب وشعور بمرارة الإنسحاق إذ يقول: (٣٥)

عشْتُ في ذلّةٍ، وقلّةِ مالٍ

واغترابٍ في معشرٍ أنذالِ

ولعل ذروة المعاناة تكمن حين يفقد الإنسان روابط الإخاء والإنتماء التي تشدهُ إلى أبناء جنسه، ومجتمعه، فيشعر أنه منبوذ، ومعزول ووحيد وهذا مصير صعب كان شاعرنا من خلاله يحسد الحشرات والدواب لأنها لم تبلغ ما بلغ من مظاهر الإنكسار، والإحباط والحرمان حيث يقول: (٣٦)

العنْكبوتُ بنَتْ بيتاً على وهَنٍ

تأوي إليه، ومالي مثلهُ وطنُ

والخُنفساءُ لها من جنسها سكَنٌ

وليس لي مثلها إلفٌ ولا سكَنُ

والواقع أن أدب الفئات الهامشية يطرح قضايا أخرى كثيرة، قد لا نلحظها في الأدب الرسمي وهي على غاية من الأهمية إذ تكشف بشكل مباشر أو غير مباشر علاقة المثقف بالسلطة أو علاقة القاع بالقمة.

فهذا الأدب نقل لنا صورة القاع الإجتماعي للفئات المسحوقة، ورسم ملامح الواقع بقتامتها ودون تزويق أو تنميق.

وقد يأخذ البعض على ذلك الأدب مستواه اللغوي أو الفني فينبذه من حظيرة الأدب الراقي، وهنا يعني تكريس سلطة فنية مستمّدة من مفهوم سلطة

النخب المتنفذة، فذاك الأدب استمد لغته ، وشكله ومضمونه من خلال مفردات البيئة التي تكوّن فيها، لأنه كان تعبيراً عنها، ولم يكن موجهاً إلى تلك النخب ليخاطبها وفق المعايير التي ترغب وترتضي.

وإذا كان السورياليون يصفون أنفسهم بأنهم " دعاة الهزيمة في كل مكان" (٣٨) فإن أدباء التهميش كانوا دعاة هزيمة كبرى، وشهود إنكسارات فجائعية عبّر عنها الكتنجي المتحامق بالقول:" نحن في زمان رأي العقلاء، قلّة منفعة العقل فتركوه ورأي الجهلاء، كثرة منفعة الجهل فلتزموه فبطل هؤلاء، لما تركوا وهؤلاء، لما لزموا فلا تدري مع مَنْ تعيش" (٣٩)

ويبقى السؤال الجوهري: هل من الممكن أن تبلغ الأمور إلى هذا الحد الذي عبّر عنه الكتنجي؟

وهل من المعقول أن تبلغ المأساة ذلك الدرك العميق من التهميش والعدمية والضياع لو كان المجتمع سليماً لا تنخر في كيانه الأمراض والأزمات والهزائم والإنهيارات؟

وبمعنى آخر هل كان لتلك الفئات من الأدباء، والمؤرخين، والفلاسفة والشعراء، أن تختار المصير الذي صارت إليه لو كان مجتمعها ينهض على أرضية متينة من العدالة والحرية والمساواة؟

قد تطول التساؤلات وتتباين وجهات النظر وتختلف الآراء، ولكننا نعتقد أن أدب الهامشيين حمل إجابات شافية، وعميقة اتسمت بقدر كبير من الأهمية في هذا المضمار.

المراجع

(١) كتاب جدل: العدد ٤ سنة ١٩٩٣ مقال: نحو رؤية جديدة لدراسة فقراء المدن د. اسماعيل قيرة ص ١٥

(٢) الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي، تصحيح أحمد أمين، وأحمد الزين، نشر مكتبة الحياة بيروت ٢٢٦/٣ ويمكن الرجوع إلى كتاب " الفلاكة والمفلوكون" أحمد بن علي الدلجي، مطبعة الشعب، مصر ١٣٢٢هـ

(٣) أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين، نشر دار الحوار ١٩٨٦ وفيه دراسة وافية عن إنخراط الأدباء في عالم التسول والإستجداء.

(٤) عالم الفكر الكويتية المجلد ١٨، العدد الأول: مقال الجنون في الأدب الفرنسي، محمد علي الكردي ص ٣٩

(٥) الفهرست: ابن النديم، تحقيق رضا تجدُّد ص ١٦٩، وتاريخ بغداد: الخطيب البغدادي طبع مكتبة الخانجي (القاهرة) والمكتبة العربية (بغداد) ٥/ ٤٠

(٦) الفهرست ص ١٦٩

(٧) طبقات الشعراء: ابن المعتز، تحقيق عبد الستار فرّاج، دار المعارف، مصر ص ٣٤٢

(٨) الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، بولاق، نشر صلاح يوسف الخليل، ودار الفكر بيروت ٢٠/ ٩٠ وأشعار أولاد الخلفاء: أبو بكر الصولي، نشر دار المسيرة بيروت ط ٣ ص ٣٤٣ ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي، تحقيق أحمد فريد، مطبعة المأمون ١٢٣/٩

(٩) الأغاني: ٢٠/ ٩٢، وأشعار أولاد الخلفاء ص ٣٣٠

(١٠) عقلاء المجانين: النيسابوري، تحقيق محمد زغلول، نشر دار الكتب العلمية ص ٣٥

(١٣) يتيمة الدهر: الثعالبي، طبقة الصاوي ٣/ ١٠٥

(١٤) عقلاء المجانين ص ٣٥

(١٥) عالم الفكر الكويتية المجلد ١٨، العدد الأول مقال: الجنون في الأدب، رشا الصباح ص ٣ وكذلك مقال: العقل واللاعقل أو خطاب الجنون عند ديدرو محمد علي الكردي ص ٢٢

(١٦) مجلة الكرمل: العدد الثالث عام ١٩٨٣ مقال" فيلسوف القاعة الثامنة، هاشم صالح ص ٢٦

(١٧) عقلاء المجانين: ص ٥٣ - ٦٦

(١٨) عقلاء المجانين: ص ٦١

(١٩) العقد الفريد: ابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين ورفقاه، القاهرة ١٩٤٩، ٦/ ١٥٠

(٢٠) معجم الأدباء ١٦٨/٤

(٢١) يتيمة الدهر: الثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبق السعادة ٣٦٦/٣

(٢٢) يتيمة الدهر ١٢٣/٣

(٢٣) يتيمة الدهر: ١٢٤/٣

(٢٤) مجلة الكرمل العدد ٣ ص ٢٢

(٢٥) الأغاني ٩٢/٢٠

(٢٦) جمع الجواهر في الملح والنوادر: القيرواني، تحقيق علي محمد البجاوي ص ٨٢

(٢٧) طبقات الشعراء ص ٣٤٣

(٢٨) الأغاني ٩١/٢٠

(٢٩) طبقات الشعراء ص ٣٤٢

(٣٠) جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ٨١

(٣١) عقلاء المجانين ص ٣٦

(٣٢) عقلاء المجانين ص ٣٦

(٣٣) عقلاء المجانين ص ٣٧

(٣٤) يتيمة الدهر ٣/ ٣٥٨

(٣٥) يتيمة الدهر ٣/ ١٢٣

(٣٦) يتيمة الدهر ١٢٣/٣

(٣٧) فلسفة السريالية ص ٦٧

(٣٨) فلسفة السريالية: فردينان ترجمة وجيه العمر، منشورات وزارة الثقافة ص ٧٤

(٣٩) الفهرست ص ١٧٠

العقد والمنديل

بقلم: فخري قعوار *

للفندق الكبير الذي أقمنا فيه على شاطيء الأوقيانوس العظيم، طابق أرضي وطابق آخر فوقه، وله مرافق كثيرة: محلات تجارية لبيع المصنوعات اليدوية، وألبسة البحر، وبطاقات الطيران، والرحلات في عمق المحيط، والسياحة في المدينة لمشاهدة المعابد وطقوس دفن الموتى، وشجر الفلفل والزعفران والزنجبيل والمطاط والشاي، والعربات التي تجرها الجواميس والثيران المدربة، وله بركة ماء عذبة، مجهزة للسباحة لمن لا يحبون المجازفات في خوض الغمار، وله أيضاً قاعة مكشوفة للألعاب الخطرة واستعراضات الرقص الشعبي، في الليالي الاستوائية، وأخرى لرياضة كرة السلة والتنس الأرضي وتنس الطاولة، وهذا ما جعل النزلاء في أبهاء الفندق زائغي النظرات، غير متأكدين من الاتجاهات المؤدية إلى الأمكنة التي يقصدونها.

وعلى كثرة النشرات الإرشادية الموزعة على طاولة الاستقبال، وطاولات البهو الرئيسي، فإن الميل إلى توجيه الأسئلة المباشرة لموظفي الفندق كان ملحوظاً بدرجة واضحة.

تأملت في خارطة الفندق، فكانت مرافقه ومبانيه على شكل شريط طويل، يمضي باستقامة في محاذاة الشاطئ، ويقع في سفح المدينة الجبلية الخضراء، ذات الطرق اللولبية، والمباني المتناثرة تحت السيقان الغليظة للأشجار الباسقة، وبعد مشاورة قصيرة، قررنا الذهاب إلى سوق الهدايا.

كانت هناك أبواب كثيرة، لعجلات تبيع عقوداً وسلاسل وأصدافاً وملابس شعبية وأدوات من صناعة النساء والأطفال، تستهوي نوعاً من السياح، فيعاجلون إلى تزيين أعناقهم وآذانهم ومعاصم أيديهم وأصابعهم بالحلي الغريبة، وارتداء قمصان وسراويل فضفاضة من صنع محلي.

لم نشتر شيئاً، واكتفينا بالنظر إلى المعروضات والتعرف عليها، ومضينا للجلوس على صخرة تكشف المحيط والمدينة.

كنت أمشي أمامها، عندما هتفت قائلة:

– انظر ، انظر ماذا وجدت.

وكانت تفرد أمامي عقداً من الأصداف السوداء والفضية اللامعة قائلة:

– لقد وجدته هنا، إنه جميل.

قلت:

– عليك أن تضعيه حول عنقك أولا.

فسارعت إلى وضعه حول عنقها، وقمت أنا بإقفاله من الخلف، ونظرت إليها قائلاً:

– لا .. لا يعجبني.

قالت:

– أنت كائن غير طبيعي.

لم ألتفت إلى ملاحظتها وقلت:

– عنقك بدون هذا العقد أجمل.

قالت بنبرات فيها لوم لي:

– كنت أظن أنك ستعتبر العثور عليه هنا، بين الصخور المتعرجة، فأل خير!

قلت:

– لسوء الحظ، أنني لا أعتبره كذلك.

واضفت، وأنا أدنو منها:

– دعيني أفكه.

فاستدارت، وفككته، وأنا أقول لها:

– احتفظي به.

وكانت تضعه في جيبها وأنا أقول لنفسي: ما أشد غرابتي! حقاً أنا كائن غير طبيعي. ماالذي يفزعني في عقد صدفي تجده ملقى على قارعة الأرض الصخرية؟

ومرت لحظة ثقيلة، تشبه مطبّاً هوائياً في رحلة

* قاص من الأردن، أمين عام اتحاد الكتاب والأدباء العرب.

كبيرة، حملت المنديل ومضيت إليها.
في الطريق إلى البركة، فردت المنديل أمامها، وقلت:
- انظر، أشعر الآن أنني [illegible]
- ولماذا لم تفعل ذلك؟
وقلبت يدي وشفتي مدعياً أنني لا أعرف لماذا لم أفعل ذلك، ثم استدركت متسائلاً:
- هل تريدين الصراحة؟
قالت: - طبعاً.
قلت:
- وقعت تحت إغراء لم أتمكن من السيطرة عليه، وأعطيت صاحبة المنديل مهلة كافية للعودة إلى منديلها.
فربما نسيته قبل مغادرتها إلى المطار، وفي هذه الحالة، يجب أن لا نظن أن إدارة الفندق مقدسة ومنزهة.
قالت:
- وما الإغراء في منديل؟
قلت:
- إنه ثمين وجميل.
وناولتها إياه وأضفت:
- إنه منديل حريري، يليق بك وحدك، ولا أقدر على شراء مثله.
تأملته جيداً، وسكتت قليلاً، ثم سألتني:
- هل أنت سعيد به؟
قلت: - لا.
عادت عيناها إلى الاتساع مرة ثانية، وسألتني بكثير من الدهشة:
- وكيف تفعل هذا وأنت غير سعيد؟
قلت في حيرة:
- أنا نفسي لا أعرف، ففي داخلي هلع، بدأ من عند العقد، وهاهي دائرته توشك أن تكتمل بالمنديل!
ولذت بصمت قصير ثم قلت:
- أليست مصادفة سخيفة أن نعثر على العقد والمنديل في يوم واحد؟
كنا قد وصلنا إلى البركة، فلم تقل شيئاً.
المنقذ يجلس على مقعد بلاستيكي قرب الماء، ويتثاءب حيناً، ويطرد عنه الذباب حيناً آخر، كان ثمة نزيل يجفف جسده من الماء، ويلملم أغراضه ويمضي.
المنقذ الشاب لم يأبه لحضورنا.
قلت له:
قليل: [illegible]
قلت له:
- لن نمكث طويلاً في الماء.
قال وهو ينظر إلى الأفق:
- ها هي الشمس تختفي، وعندما يحل الظلام نمنع السباحة.
فأكدت له أننا لن نمكث طويلاً في البركة، وهبطنا على درجات السلم، كان الماء بارداً، لكن الجزء الذي يغطس فيه، يألف البرودة، هبطنا أكثر، إلى أن وصل الماء إلى أعناقنا، وأحياناً إلى أنوفنا.
قلت لها:
- سأحاول العوم وأنا ممسك بحديد السلم.
قالت وهي تضحك:
- حاول، فأنا سأنقذك!
وانقلبَ المشهد إلى مأساة وشيكة، إذ كدت أتحول إلى غريق، ينتهي ببضعة فقاقيع على السطح، ثم تطفو جثته فوق الماء، لولا ولولاتها التي لفتت انتباه المنقذ، فجعلته يقفز نحوي، ويدفعني بركبته من قاع البركة إلى أعلى!
زحف الظلام بسرعة لم نتوقعها، لكننا استدفأنا بالماء، وحثّنا المنقذ على الخروج، لأن مناوبته انتهت.
أقبل من جهة المحيط، رجل يرتدي زياً أبيض، ويحمل مصباحاً يدوياً، قالت متسائلة:
- ماذا يفعل هذا الرجل؟
قلت:
- إنه على ما يبدو من خفر السواحل.
قالت: - وماذا يريد؟
قلت مازحاً:
- إنه طارقة النوى.
قالت مستفهمة: ماذا تعني؟
قلت:
- أعني إنه يبحث عن الجثث الطافية.
ولما دنا منا أكثر، عرفناه، فقد كان الأستاذ لطفي الابراهيمي، مما جعلني أقول لنفسي:
- الآن، اكتملت الدائرة.

البحث عن زيزيا (*)

جمال ابو حمدان(**)

لم يكن يدري إلى أين! /ولكن/
حينما فاضت على أحداقه الوسنى/
فضاءات النهار./
هبَّ هذا الحالم /الساكن في الحلم/
مذعوراً /يداري الإنكسار/
فطوى أحلامه /المرّة والحلوة/
في جفنيه /مهزوما/
وسار.

وعلى الباب، سألتني زوجتي: «إلى أين؟!»
أجبت بهدوء: «ألم تعرفي بعد! إنني أبحث عن زيزيا.»
فارتدّت إلى الداخل، وارتددت إلى الخارج.. وارتجف بيننا الباب.
كانت الشمس قبل على الأفق، لتغيب، فسلت على منعطف الطريق، لأرتاح.
والطريق تمتد، وقدرتي على مواصلة السير تتكمش، فهجعت إلى ظل وارف، لشجرة مستوحشة.. فصارت بيننا ألفة.
قالت زوجتي: «ما الذي تريده من هذا البحث المضني كل يوم؟!»
قلت: «أن أجد زيزيا.»
قالت: «أنت غريب حقاً.! ما الذي تريده منها؟»
قلت: «لا شيء، أن أجدها. وهذا يكفيني.»
قالت: «غريب ومجنون! فأنت لا تعرفها.»
قلت: «أعرفها.. لكني لا أعرف شكلها الآن.. إلا حين أجدها..»
فتركتني.. وتركتها، وخرجت.
بقيت جالساً على الحجر، تحت ظل الشجرة، وقبل أن يتشرّب جسدي راحة القعود، وتتشرّب روحي ألفة التوحّد معها.. أخذ الظل يذوب في دغش المغيب، فقمت.
لا أدري ما هي المسافة التي انطوت ورائي، ولا المسافة التي ما زالت تمتد أمامي.
وما عاد المكان واضح المعالم في ذهني، إنما الطريق واضحة أمام بصري، فمشيت..
ثم خطر لي أن أتأكد من وجود الصورة معي، فتلمّستها في جيبي:
عينان سوداوان واسعتان، وأنف صغير شامخ، وشفتان مليئتان ندبّتان، والشعر أسود لكنه لم يتكثّف بعد..
عارية، ومستكينة على صدر أمها، لكنها مشيحة عن الثدي البارز من شقّ الثوب، إلى أفق بعيد لا يظهر في الصورة.
وليس في الصورة غيرها، وجزء من صدر الأم المكتنز بالحليب، وعلى حلمته قطرة، لم تُرتشف بعد.
وفي خلفية المشهد، أجزاء من أجساد أخرى، ربما الأب.. والجدة وأقارب وتازحون آخرون.
وعبر مسرب ضيق بين الأعضاء الظاهرة في الصورة، تبدو بعض خيام حولها أشباح ملفعة بالغبار والغروب..
ومن الواضح أن من التقط الصورة، لم تكن لديه دراية بالتصوير، إذ ارتكب مجزرة في تقطيع الأطراف والرؤوس والأكتاف والأرجل، لم ينجُ منها غير زيزيا، التي بدت كاملة في عربها وسط الصورة.
وليس عندي غير هذه الصورة، لطفلة رضيعة في اليوم الأربعين من عمرها..
رفعت زوجتي الصورة إلى مستوى النظر وقتمتْ من ورائها: «زوجي حقاً مجنون.»
سمعتُ، وتجاهلتُ، فأنزلتْ الصورة وتوجهت إليّ: «كيف حصلت عليها؟»
قلت: «كنت موجوداً يومها. هذه الصورة أُخذتْ لزيزيا في يوم الأربعين لولادتها..»
هزّت رأسها، وقالت: «الأصل أن تكون الأربعين للموت.. وليس للولادة.»

---

* مخيم للنازحين الفلسطينيين جنوب عمان، تغيّر اسمه فيما بعد إلى الطالبية، «وزيزيا» اسم أول طفلة ولدت في المخيم عشية وصول نازحي ١٩٦٧ اليه.
** قاص ومسرحي من الأردن

قلت: «في المخيم اختلطت أمور الحياة بأمور الموت.»

ابتعدت..

صارت الشجرة وحيدة في ثباتها، وصرت وحيداً في حركتي على الطريق، إلى أن دخلت المخيم، في اللحظة التي دخل فيها الليل على النهار.

ورغم العتمة.. عتمة في الخارج، وعتمة في الداخل، لم أجد عناء هذه المرة في البحث عن البيت/الخيمة التي توقعت أن أجدها، أو أعثر على خبر عنها، فيه..

إذ انتصب أمامي فجأة، وكأنه يدعوني إليه، وكأنما لا يوجد على سطح البسيطة غيره. وكل ما حوله خلاء معتم ممتد.

همست، ثم تريّثت، علّني أسمع هاتفاً من الداخل، فما سمعته، فعزمتُ ودخلتُ.

ما أن عبرت العتبة، حتى وجدتني محاطاً برهط من الخلق، من مختلفي الأعمار والهيئات، متناثرين جلوساً في زوايا المكان، شاخصين إلى الباب، كأنما ينتظرون طلّتي عليهم..

وما أن صرت وسطهم، حتى سمعتهم يخاطبونني بصوت واحد متناغم وأجشّ: «أما زلت تبحث عن زيزيا؟»

أومأت برأسي، فقال كبيرهم: «أشفقنا عليك من هذا البحث، فاجتمعنا كلنا هنا الليلة لندلّك عليها..»

أدرت نظري، وتفرسّت فيهم، على ضوء شحيح، فتبينت أنهم جميع الذين مررت بهم، وسألتهم عنها، فما أجابني أحد.. فامتلأت بالحنق، وصحت فيهم، «فلماذا أخفيتم عني أمرها عندما سألتكم عنها من قبل..»

أشار إليّ كبيرهم بالهدوء، وقال: «ما أخفينا عنك شيئاً.. هي التي اختفت.. فأخفت عنّا كل شيء...»

وقاطعه آخر: «ربما خشينا، أن يطلعك كل منّا على أمر مختلف.. فالحقيقة لا تظهر إلاّ من جماع كلامنا.. فاجتمعنا هنا في انتظارك.»

هدأت، وسألت: «وما أدراكم أنني سآتي الليلة..»

ابتسم كبيرهم، وقال: «وهل توقفت عن البحث عنها في نهار أو ليل!»

وجلست محاطاً بهم، فشدّ كبيرهم قامته وتصلّب بقدر ما تمكّنه سنه وقال: «إسمع يا بني.. لا نريد أن تضيع وقتنا.. ولا نريد أن نضيّع وقتك.. فأنت قضيت نصف عمرك تقريباً في البحث عنها.. ولم يبق أمامك إلا نصف عمرك الآخر الذي ستقضيه في اللقاء معها.. هات كل ما عندك من أسئلة.. وخذ كل ما عندنا من أجوبة.. ولا نعدك بالتطابق بين أسئلتك وأجوبتنا.. عليك أنت أن تقوم بالمطابقة..»

حملقت فيه بخوف.. ولم يكن عندي غير سؤال واحد، أفلت مني دون أن أقدر على التروي والتفكير..

وما أن سمعني أقتم، وعلى وجل، أين زيزيا.. بريكم دلّوني عليها»، حتى تدفق سيل عرم جارف من القول، راح يتلاطم من حولي، ولم أقدر أن أتبيّن مصدره، والتقاط كلماته، إلا بعد جهد مضنٍ من التركيز والتشبّث بنفسي، أخرجني منه ثانية، ورماني في لجة الاضطراب، صوت جاء مخترقاً الفراغ فوق رؤوس الجميع، لينصبّ في قلبي، ثم يتصاعد إلى أذني، حين سمعت من يقول:

«ألا تعرف أن زيزيا ماتت.!»

رفعت إليه نظراً مضطرباً، ووجدت أن الجميع يرمقونه باستغراب..

تجاهل نظراتهم، وهبّ إليّ، وقال: «ألا تصدّق أنها ماتت..»، وأمسك بيدي وجذبني، فامتثلتُ، واستجبتُ، فقال: «تعال أريك قبرها.. المقبرة هنا وراء الجدار، وليس بيننا وبينها غير هذا الجدار، وهذه النافذة في وسطه. الأحياء يطلون عبرها على الأموات.. والأموات يطلون عبرها على الأحياء. ولن أتعبك.. فليس بيننا وبينها إلا باب خلفي، فاصل بين الدار والمقبرة، وواصل بين الأحياء والاموات. تخطو عبره غرباً إلى الدار وتخطو عبره شرقاً إلى المقبرة.. هيا، هذه تجربة جديدة عليك، فأنت رغم بحثك الدائم، لم تشرّق ولم تغرّب عبر هذا الباب.. ثم إن الحقيقة ستريحك من البحث.. هَلُمَّ»

قمت معه، واجتزنا خارجين من الدار، داخلين المقبرة..

كان حارسها، مسترخياً يقرقر بنارجيلته، تحت ضوء القمر..

دنونا منه خفيفي الوطء على أديم القبور، حتى جاورناه، فهتفت به: «أين قبر زيزيا؟»

انتزع النارجيلة من فمه، ونهرني مؤنّباً، أن أصمتَ، فلا أقلقَ هجعة الموتى..

قلت: «أرجوك».

أشار بيسم النارجيلة إلى القبر الذي يجلس فوقه، وقتم: «هذا»

قلت بصوت خاشع متوسل: «أرجوك.. أريد أن أراها..»

أزاح النارجيلة، ونهرني: «نبش القبور جريمة.. أخرج من هنا»

فخرجت.

إلاّ أنه ناداني قبل أن أجتاز الباب فعدت إليه..

حملق في، وقال: «ما كان عليك أن تطلب رؤيتها».

حركت رأسي مستفهماً، فأكمل: «زيزيا، دفنت عارية، كما ولدتها أمها.»

أطرقت، فأكمل: «دُفنت بعد ولادتها بأربعين يوماً..»

رفعت وجهي، وحملقت فيه، ثم قلت بصوت متحشرج: «ألم تعش، وتكبر، وتتزوج..»

لم يردّ. أطرق، وتناول النارجيلة بين شفتيه، وطفق قرقرة مائها على الجو الساكن..

فخرجنا من المقبرة، ودخلنا الدار، محاطين بنظرات غاضبة، أخذت تحيق بوقوفنا بينهم.. وتوجهت الأنظار إلى الآخر..

وانهمرت اصوات مختلطة، تميز بينها قائل: «لماذا قلت له أنها ماتت!.»

تفرسّت فيهم، لأتعرّف على صاحب القول الأخير، فجذبني إليه بأن أكمل:

قلت: «لكن الاسم يبقى..»

قالوا: «ستغادر المكان، فلا تنتسب إليه بعد الآن. وها هي قد غادرت المكان فعلاً.. وما عرف أحد بعد ذلك أين ذهبت. اختفت تماماً. عني على الأقل.. فأول مرة، وآخر مرة رأيتها فيها، بعد ولادتها عارية هاجعة في حضن أمها، تسمع اسمها الحديث الولادة أيضاً.. فتبرق عيناها الطفلتان، ولا تدري إن كان بريق غبطة أم بريق أسى، فأنا يا بنيّ.. ما عدت أفرق بين غبطة وأسى.. لكني أفرق بين مخيم زيزيا.. وبلدة الطالبية.. فأنا بقيت في المكان. وشهدت تغير اسمه، وتغير حاله. أما أنت فلماذا جئتنا وليس لك شأن بنا وبه.. ولماذا تبحث عن زيزيا، هذا البحث اللاهث المحموم..»

صعقني سؤاله، وارتجّ عليّ، وما عرفت بماذا أجيب.

أما هو فلم ينتظر إجابتي.. إذ أشاح عني، وعاد إلى إطراقته وصمته العميق..

وتركني معلّقاً في لحظة انخطاف وذهول.. بين نظرات الآخرين..واقفاً بين لهفة تمتد إلى ما لا نهاية.. وخيبة تضيق وتسد السبيل..

لا فائدة من البحث.

دروب متقاطعة، لا تفضي إلى مكان، ترتد عند كل تشعب إلى داخلي، وتتشابك.

أضناني البحث والأمل.. وأضناني الاحباط والخيبة..

كل الآثار تدل عليها، ولا أثر لها..

لماذا لا أترك هذا الأمر، وأعود إلى بيتي، وأهجع إلى نفسي فيه، وأعيد ما انقطع من الوصل بيني وبين زوجتي، بسبب هذا البحث اللامجدي..

المخيم تغير اسمه.. وتغيرت حاله، فانتشرت فيه بيوت الاستقرار الإسمنتية القبيحة. وفيه متاجر.. لها لافتات مضاءة بالنيون، ومطاعم أمريكية، وإيطالية، وهندية.

والشيخ الطاعن في العمر وفي النزوح ما زال يتنهد.. ثم يصمت..

وتسي زيزيا المخيم، زيزيا البنت..فلماذا أذكرها أنا، وما شأني بها..

فلماذا لا أكفّ عن هذا البحث، وأنسى الأمر برمّته..؟!

أماقالوا لي ما شأنك بها. فما شأني حقاً بطفلة ولدت في مخيم، بعد يوم من نزوح أهلها إليه. فسميت باسمه!

ثم اغترب المخيم عن نفسه.. فاغتربت هي عنه.. موتاً أو حياة لا أدري.

لا فائدة إذن..

أخرج من دائرة العيون المضروبة حولي.. وأجتاز الباب من الدار إلى المقبرة.. وربما استطعت أن أجتاز المقبرة حياً، إلى الطريق.. وأمرّ بالشجرة، ولا ظل لها الآن في هذا الليل البهيم.. وأتابع طريقي إلى الدار.

وقفت على عتبة دارهم في أول الليل..

وها أنا أقف على عتبة داري في أول النهار..

تركت الأمر كله وراءي.. وما أمامي إلا فراغ أشهب.. ربما يكون أكثر وحشة.. وخطوت خطوتين إلى الداخل..

البيت ساكن، هاجع، فعبرت بياضاً مسفوحاً في المكان. كل شيء أبيض، الجدران، السقوف، الأبواب النوافذ، الأثاث، الأدوات.. كل شيء..

وحدها زوجتي جالسة في صدر الدار في ثوبها الأسود الذي تحبه معاً..

يا إلهي..

وزيزيا.. وزيزيا بذاتها كانت هناك..

لم أفاجأ بها..

أحسست كأنما زيزيا.. طوال حياتها كانت هنا.. لم يفاجئني وجودها في هذا المكان بالذات. بعد كل هذا البحث عنها. وكأنما خرجت طوال هذا الزمن لأعود فأجدها..

فتحت فمي، وهممت بالقول، فأشارت إليّ زوجتي بالصمت، «إنها غافية.. كأنها لم تنم منذ ولادتها عام ١٩٦٧.. دعها نائمة..»

جلست قبالتها ورحت أتأملها..

أشرت لزوجتي متسائلاً، «كيف جاءت.. كيف وصلت إلى هنا، بعد كل هذا الزمن..؟»

هزّت رأسها بحسرة، وهمست: «ربما كانت هي تبحث عنك في ذات الوقت.. وها قد وصلت، قبل أن تصل أنت.. أأنت الذي وجدتها.. أم هي التي وجدتك..؟»

عادت زوجتي إلى الصمت.. وراحت تتأمل وجه زيزيا الغافي في حضنها..

ورأيت الحنان الأسر الذي كان يفيض منها، على الطفلة..

طفلة!

كل هذه السنوات.. مازالت كما رأيتها أول مرة وآخر مرة..

سحبت الصورة من جيبي، ورحت أمايز بين زيزيا الماثلة أمامي الآن.. فلا أجد فرقاً.

ذات الهجعة.. وذات العري الطفل، كما كانت في حضن أمها في الأيام الأولى لولادتها.. عارية تماماً الآن، وهاجعة في حضن زوجتي في الأيام الأخيرة من ولادتها الممتدة.

ما اختلف شيء أبداً..

الطفلة ذات الأربعين يوماً، نائمة الآن هنا أمامي، وما تغير شيء عن الصورة التي أحملها؛ إلا اختفاء الأيدي والأرجل والرؤوس المقطوعة من الخلفية.

فلا شيء وراءها، إلاّ ثوب زوجتي الأسود الذي هجعت لتنام في حضنه.. وخلف الاثنين امتداد أبيض لا ينتهي..

ليل ٢٦/٨/١٩٩٦

مساحات الطريق الراكضة، أضيئها بقوة أراها تنفرش على المسافات البعيدة القادمة نحوي .. هل المسافات هي التي تركض إليّ، أم أن عداد السرعة المجنون يطادرها ... ؟ أرتجف، أرتجف وأستدعيك أنت .. أريدك الآن أنت .. أنت من بين كل الناس، وحدك أنت ... تحين مني التفاتة إلى المقعد الفارغ قربي، يتوقف شعر رأسي فجأة، وأسمع صرختي المجنونة .. إنه أبي .. يبتسم لي .. يا أبي البعيد منذ دهر .. يا أبي .. وجهك الشفيف أمامي يُكثّف الأمان في قلبي دائماً .. قوس قزح أنت يا أبي في عالمي العاصف .. لا، أهذا أنت ..لا، لست أنت، إنها أمي، إمي التي وضعتُ على قبرها قبل أيام باقة القرنفل الأبيض، هي طلبت ذلك، قالت تمازحنا ونحن نجتمع حولها ونرتشف القهوة:

- عندما أموت، لا أريد شيئاً من الطقوس المعتادة .. مجرد باقة قرنفل أبيض بعددكم كلكم .. أريده أبيض ..!

ضحكنا معاً، ومازحناها:

- وماذا لو كان أحمر..؟

- لا أريده، أبيض فقط، تذكروا أنني أحب القرنفل الأبيض ..!

يا إلهي، أمي التي كانت قوية مثل سنديانة، لوت عنقها الأبيض، وأغمضت عيناها الملونتان بهدوء، وماتت بصمت، كما تلوي الزنبقة البيضاء عنقها وتذبل .. تماماً مثلها .... وقفنا كلنا بذهول على قبرها بعد أسبوع، تحمل الباقة ونفرشها على التراب ... لا، لا أصدق .. ليست أمي .. لا أحد معي .. لا أحد .. أنا أتخيل .. فقط أتخيل، تركض أمامي الأشياء، أشياء، لا أميزها .. والليل يسقط على الطرقات، والمطر يسقط بقوة مجنونة، كيف يمكنني أن أصدق أن هذه هي فاتحة الموسم ...؟ كيف ...؟

أقنع نفسي بأن أتجاهل المقعد الفارغ، وأعاهدها بألاّ أتطلع في المرآة، لئلا أكتشف وجوهاً أخرى تلازمني في التقعد الخلفي .. أريدك أنت .. وحدك أنت يا حبيبي .. يا إلهي ... لماذا تركتني الآن .. لماذا تركتك أنا الآن .. لماذا ...؟ كان يجب عليّ أن أعترف بضعفي وأقرر ألاّ أقود هذه السيارة المجنونة وحدي ... وكان يجب أن أعترف لك بأنني ضعيفة لكنني كعادتي عنيدة مثل جبل ... عنيدة وخائفة ...!

أقتنع الآن بأن عليّ أن أركز نظراتي على الزجاج الأمامي فقط، الزجاج الأمامي لا شيء غيره .. أتابع المساحات المتدافعة .. أرتعش برعب .. أراه فجأة أمامي .. نعم، هو! جدي الذي غاب قبل عام .. ها هو، التمعت العينان الذكيتان رغم إغراقه في الزمن .. هو .. هو .. يلتمع على الزجاج، تمسحه المساحات المطاطية، لكنه يعود ليرتسم أمامي، تبرق عيناه مع التماعة البرق، ويرتعد قلبي مرتعشاً مع صوت الرعد المندفع في السموات ...

أصرخ بانفعال مجنون:

- ماذا تريدون ...؟

لا أقتنع بصوتي الخائف المتردد في الأنحاء الخالية، أصرخ من جديد:

- ساعدوني ... أرجوكم ..!

وجوه لا أعرفها ترتسم مع وجه جدي، تملأ الزجاج الأمامي الذي اتسع ليصبح مثل الأفق ..أحس الأنفاس المترددة قربي، وأعرف تماماً أن كلّ العصور والوجوه والأحداث تطلّ عليّ من حزمة المطر التي تطرق النوافذ .. أرتعش .. أرتعش للمرة الأخيرة وأصوات ارتطام ما تملأ الأفق .. تملأ كل الأرجاء، حتى ما عدت أسمع غيره ...!

١٩٩٦/١٠/٢٥م

شخصين أو ثلاثة لم أستطع تبين ملامحهم بوضوح من هذه المسافة الشاسعة، ولا أحد يخطر بباله أن أحداً آخر يطلب النجدة من شرفة فندق في الطبقة الخامسة عشرة، لذا فقد ذهبت صرختي أدراج الرياح، وكانت شرفتي مثل غيرها معزولة عن باقي الشرفات، فواضع التصميم الأساس للفندق لم يكن يفكر في هذا الذي حدث لي وربما لغيري وإلا لوضع مقبضاً يفتح الباب الزجاجي من الخارج، وهذا يعني أنني سأبقى في زنزانتي المعلقة هذه بين السماء والأرض، وتذكرت رواد الفضاء الذين خرجوا من مركباتهم ليسبحوا في الفضاء الخارجي فتقطعت بهم الأسباب، فظلوا يدورون إلى أجل لا يعلمه إلا الله، لا يعبأ بهم أحد، فمن يعبأ بي ومن يفتقدني في المدينة هذه، أنا الغريب عنها لا يعرفني أحد، وما دام المفتاح معي فلا أحد يشك أبداً في وجودي داخل غرفتي أو داخل الفندق في أقل تقدير، فمن غير الممكن أن يأخذ نزيل مفتاح غرفته خارج الفندق، والقائمون على الأمر اتخذوا الاحتياطات اللازمة وزودوا كل مفتاح بغيل من الخشب الأسود أكبر من أن يسعه جيب في الدنيا، فجأة قفزت من مكاني بفرح لا يضارع وأحسست الأمل يزهر في أعماقي وأنا أسمع الهاتف يرن لقد جاءنا الفرج هكذا وبسرعة قلت في نفسي بصوت راعش واندفعت بسرعة نحو الهاتف لكنني اصطدمت بالباب الزجاجي، وكدت أسقط، تراجعت مخذولاً وأنا أعاني دواراً ووجعاً في الجبهة، وفيما كان الهاتف يواصل رنينه داخل الغرفة راح البلبل ينظر إليه بفرح وازداد رفيف أجنحته وخفقان قلبه الصغير كنت أسمعه بوضوح ثم انقطع الرنين فتوقف كل شيء... ظل البلبل واجماً يفرد جناحيه ويفتح فمه، محافظاً على هيئته هذه وكأنه قد تجمّد أو تحول إلى تمثال حجري لبلبل صغير نظرت نحوه بحزن إلا أنه ظل صامتاً فأصبت بالخيبة بعد أن تيقنت ألا مخرج لي من هذا السجن، فربما سأبقى أياماً وأياماً حتى أموت جوعاً وظمأ يحرق مهجة القلب في الظهيرة ثم أتيبس وأتحول إلى هيكل عظمي داخل بدلتي الأنيقة مثل أي رجل فضاء ضل في المحيط الكوني الهائل لكنني تذكرت أن رجال الفضاء الضالين أولئك لن ينوشهم العطب مدى الدهر فهم مصانون ضد التفسخ والتحلل.. والفضاء الخارجي لا يحمل عوامل ذلك حين تذكرت هذا شعرت بالبكاء يحاصرني وتمنيت لو فعلت، لكنني سحبت خطاي المجهدة واقتربت من الباب الزجاجي هززته برفق فلم يستجب ثم دفعته بعنف وفكرت بتحطيم لوح الزجاج إلا أنني شككت في قدرتي على ذلك، فأنا لا أملك إلا يديّ وليس من شك في أنهما ستبليان قبل أن يتحطم الزجاج، شعرت بألم في جبهتي على شكل نار حامية تخرج منها فرقعت يدي وتحسستها.. كان هناك نتوء بارز تحت أصابعي، نتوء مثل ورم صغير، وإحساسي بالسجن بدأ يبهظني، فمن يفتقدني في الليل، شعرت بأنني اختنق برغم أن الشرفة تسبح في هواء المساء البارد، كانت على ارتفاع خمسين متراً فوق سطح الأرض، كانت المروحة تدور وهي تنفث هواء بارداً.. كنت وحيداً معزولاً بجدران الألمنيوم الأنيقة، برغم ان المصعد كان فارهًا ونظيفاً وممضاء تابوتاً على درجة عالية من الأناقة والترف لا أحلم به طيلة عمري ولم يدم توقفه إلا قروناً معدودات خرجت بعدها وقد ابيضّ شعر رأسي ووصلت لحيتي موطئ أقدامي والليل هبط، تغشّاني، فأنا في بطن الحوت في كهف حجري مظلم ووراء الزجاج كانت غرفتي تغرف في النور .. تمنيت لو أنني استطعت إشعال مصباح شرفتي، إلا أنني تذكرت أن المفتاح كان داخل الغرفة أيضاً ومفتاح الشرفة في الغرفة ومفتاح الغرفة في الغرفة والغيل الأسود في الغرفة والبلبل مسجون في الغرفة وأنا موجود في الشرفة والشرفة ليست في الغرفة والغرفة.. تنبهت إلى أنني كنت أهذي، يا إلهي.. هل فقدت عقلي.. رحت أصرخ وأصرخ.. هيه.. أنتم يا من هناك هيه.. أيها الناس.. أيها الخلق..

أنتم يا من هناك، إلا أن أحداً لم يسمعني وكأني نزيل يفقد عقله وهو يرى قضبان السجن تغلق دونه رحت أطرق أبواب الهواء التي لا تفتح بقبضتي طرقات عنيفة متتالية، بسرعة، بسرعة أنت اسمع صداها يتردد عاليا وأنا أصرخ.. يا ناس.. ياخلق.. هيه أنتم يا من هناك حتى شعرت بالانهيار، فسقطت على الأرض مثل بناء ينهد وبدأت أنتحب بمرارة نظرت إلى البلبل بعينين مغرورقتين بالدمع، مايزال في قفصه الرحب كان، رحت أحدّق فيه.. رأيته ينتفض ويغادر حالته الحجرية ثم طفق يغرد بأسى وهو ينظر إلي بعينيه السوداوين اللامعتين ثم يقترب من باب القفص يفتحه بمخالبه وينفلت خارجاً إلى فضاء الغرفة الفسيح. كان فرحاً إلى درجة لا توصف وهو يحوم ويدوم ويرف، رحت أتابعه وأنا أحس توقه إلى فضاء رحب لامتناه.. فضاء من الحرية.. راح ينظر إلي وحين تلاقت عيوننا رأيته يبتسم لي ابتسامته الحزينة تلك ثم يندفع نحوي معانقاً مثل قذيفة ، ليصطدم بالباب الزجاجي ويتحطم..